

تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر

د. محمد أحمد محمد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وبعد فهذا موضوع يتناول «تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر» دعائي إلى كتابته طرح نموذج يتصل بتنظيم الحكم والإدارة في عهد الراشدين، ويعكس الشكل المثالي للحكم المركزي الذي وضع أساسه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسار على نهجه الخلفاء من بعده، ويظهر بوضوح ما كان يسعى إليه الخلفاء حينئذ لربط الأمصار المفتوحة بمركز الخلافة بما يحقق الوحدة تحت راية الخلافة بحيث يأتي حكم الولايات موصولاً بانجهاات مركز الخلافة السياسية والإدارية والعسكرية.



ونعني بولاية مصر الإمارة أو السلطة التي تولاها عمرو بن العاص في مصر بوصفه نائباً عن الخليفة، أما تقليد تلك الولاية، فيشير إلى المعنى الاصطلاحي الذي يحمل أن هناك عهداً استصدره الخليفة عمرو بن الخطاب لعمرو بن العاص بولاية مصر، وعلى الرغم من أن الوثائق التي زخرت بها المصادر قد خلّت من الإشارة إلى ذلك العهد، فإن الدراسة تؤكد أن الخليفة عمرو بن الخطاب أسند ولاية مصر إلى عمرو بن العاص بعقد الاختيار؛ الأمر الذي يشير إلى أنه قد ولاه الإمارة العامة، والتي جمع فيها عمرو بين الولايتين الخراج والصلاة.

ويعالج البحث نوع ذلك العهد الذي تولى بمقتضاه عمرو بن العاص ولاية مصر الأولى (٢٠ - ٢٣ هـ)، وقيامه باختصاصاته والدوافع التي كانت وراء اختيار عمرو لهذا الدور، ولا يتطرق بطبيعة الحال إلى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر في أول عهد مصر بالإسلام حفاظاً على وحدة الموضوع.

هذا وبدأت البحث بعرض للعوامل التي أسهمت في اختيار عمرو بن العاص قائداً لفتح مصر، وعالجت في الجانب الثاني إسناد تلك الولاية إليه بعد نجاحه في فتحها من قبل الخليفة، وأنهيت البحث بفصل تناولت فيه بالشرح قيام عمرو بن العاص باختصاصات عقد الاختيار.

هذا والله من وراء القصد

اختيار عمرو بن العاص قائدا لفتح مصر:

يمتد البحث في أول عهود مصر بالإسلام إلى جوانب عديدة، وترتبط هذه الجوانب بالظروف التي عايشها العرب في ظل تطور الأحداث الناشئة المواكبة لحركة الفتوح الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما أنها تتصل بأعلام العرب ممن كان لهم دور في تثبيت أقدام العرب في بلاد الشام - بالذات - وممن كان منهم على صلة بالعناصر الاستيطانية في النواحي المزمع فتحها، ومدى ما وقف عليه الخليفة من جهود هؤلاء توطئة لقيامه باستنهاض نفر منهم أو قائد من بينهم ليسند إليه مهمة فتح هذه الناحية أو تلك في ظل ظروف ملائمة تستوجب الضرورة بهذا الفتح، فضلا عما يستلهمه هذا القائد من مواهب وقدرات عسكرية وأخرى عقلية تمهد له النجاح فيما أسند إليه من سبيل بشأن الفتح. ومن الثابت أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أسند مهمة فتح مصر إلى عمرو بن العاص، وكان نجاح هذا الأخير في إتمام هذه المهمة قد أبقاه في مصر والباقي عليها في أول عهود مصر بالإسلام، على أن اختيار الخليفة لعمر بن العاص للقيام بهذه المهمة له ما يبرره، ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على اختيار أعلامه بهذا الخصوص وفق شروط دأب على التأكد من تثبيتها في رجال يعينهم من أعلامه، في وقت يلزم فيه أن يتخير ولاته وعياله لتعذر مباشرته لجميع الأمور ولشلا يشتغل عن التدبير^(١) وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال (ينبغي أن يكون في الولي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور، ويكون فيه من الرقة والعفو والرحمة والرافة ما يجزع من قتل عصفور...)^(٢).

على أن ما أسلفناه ينهض بنا إلى البحث في الظروف التي استنهضت الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بضرورة فتح مصر، واختيار القيادة العربية

اللازمة للقيام بهذا الفتح، كما أنها تنهض بنا إلى البحث في هذه القيادة. فيما هو لصيق بها من قدرات ومواهب، وما أثبتته في ميدان الجهاد، وما يجدر ذكره أن الضرورة بفتح مصر، والشخص الفاتح جائبان متلازمان كل التلازم، متداخلان كل التداخل، ويصعب على الباحث الفصل بينهما، ذلك أن ثانيهما تمهيد طبيعي لتحقيق أولاهما وأن أولاهما مدخل طبيعي لاختيار ثانيهما.

كانت القيادة العربية في حاضرة الدولة تتخذ من الإجراءات والترتيبات التي تكفل نجاح عملياتها العسكرية وفق نظام محكم تمليه ظروف التوسع، كاتخاذ قرار بتأمين المواقع التي تم فتحها أو ضرورة غزو موقع جديد أو إرسال الإمدادات العسكرية لموقع ترى أنه في مسيس الحاجة إلى ذلك لإحكام القبضة العربية وهيمنتها، درءاً للأخطار ومنعاً للحركات التي تستهدف كسر هذه الجهود من الخلف، ومن هنا كانت القيادة العربية تباشر عمليات التوسع في العراق وفارس والشام في صور متكاملة بحيث صار من اليسير وفق الضرورة العسكرية أن ترسل إمدادات عسكرية من العراق إلى الشام الأكثر صعوبة، وأعظم خطراً في فتحها واحتوائها^(٣)، - وعلى هذا المتوال - شرع المسلمون في فتح مصر تأميناً لحدود الشام الجنوبية، واستكمالاً لحركة التوسع وثبتاً للسيادة العربية في الولايات البيزنطية.

كان لمصر من التنايز والخصوصية من حيث موقعها الجغرافي والسياسي ما يجعل للعرب المسلمين بالضرورة الرغبة في دخولها والاستيطان بها، وأول ما يقابلنا من أمر خصوصية مصر وتمايزها عن غيرها من المواقع أن موقعها السياسي إبان الفتوحات الإسلامية في غير بلاد الإسلام كان يتوسط على وجه التقريب تلك الولايات البيزنطية في الشام ومصر والمغرب والنوبة ونجاح المسلمين في فتح الشام دونها دخولهم مصر لا يتيح لهم فرصة التغلغل وبسط السيطرة على تلك

البلاد، إذ كان من اليسر أن يقوم الروم (البيزنطيون) من مصر باسترداد ما استولى عليه العرب في الشام، عل حين أن نجاح العرب في دخولهم مصر يمكنهم من احتواء أي خطر قد يأتيهم من الغرب أو الجنوب، فضلا عن تشجيعهم على الانتشار بتلك الجهات إمعانا لثبيت السيادة العربية، وهو أمر تفرضه - أيضا - الخطط العسكرية العربية التي تقضي بضرورة تأمين حدود مصر الغربية والجنوبية، مما جعل الحاميات البيزنطية جهة أفريقية مستهدفة للجند العرب في مصر.

وتكشف إشارات المصادر على أن عمرو بن العاص قد أدرك أهمية مصر، بعد أن لمس أثناء فتحه لفلسطين خطورة ما بها من حاميات بيزنطية من شأنها أن تعرقل المسيرة الإسلامية في الفتوحات، فأشار على الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة فتح مصر ولا يعني ذلك أن الخليفة غير راغب في فتحها أو أن فتحها لم يكن في حسابان الخليفة، بل إن الخليفة كان يدرك بطبيعة الحال أهمية مصر وضرورة فتحها بعد أن أحرزت الفتوحات الإسلامية نتائج موفقة في النواحي الشامية، وكل ما في الأمر أنه كان يلزم الحيلة والتمحيص والوقوف على الظروف المحيطة بالشام ومصر، واختيار الوقت المناسب والفائد الأمين الذي بوسعه القيام بعمليات الفتح فيما تمهد له قدراته، ولما أدرك الخليفة أن الضرورة تقضي بوجوب المسير إلى مصر وعلى وجه السرعة أذن لعمرو بن العاص في المسير إليها.

ومالا شك فيه أن عمرو بن العاص كان أحكم الشخصيات الإسلامية آنئذ للقيام بهذه المهمة، وأن الخليفة عمر بن الخطاب كان على بينة من أمره، عل الرغم من أن عمرو بن العاص لم يكن إذ ذاك يمثل القيادة يمثل ما كان يمثل كبار قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق، الأمر الذي جعل الخليفة يتردد

بضع لحظات، وسرعان ما أذن إليه بالمسير إلى مصر^(٤) ذلك أنه قد أدرك في شخصه كفاتح أسبانيا جعلته قريب الصلة بمصر المراد فتحها وبالشام التي تيسر له هذا الفتح، وبالحطط العسكرية البيزنطية التي واجهها في الشام، مما جعله أكثر ثقلاً في توجهاته العسكرية، وتطويق واقتحام الحصون البيزنطية في مصر^(٥).

أما مصر، فكانت صلة عمرو بن العاص بها في الجاهلية عظيمة الأثر ومهدت له السبيل في وقت لاحق، فصار حينما دخلها للفتح خبيراً بدروبها وأحوالها، ويذكر ابن عبد الحكم^(٦) (وكان عمرو بن العاص قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها) ويذكر المقرئ^(٧) عن عمرو بن العاص أنه (كان تاجراً في الجاهلية وكان يختلف بتجارته إلى مصر - وهي الأدم والعطر - ثم ضرب الدهر ضرباته حتى فتح المسلمون الشام، فخلا بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فاستأذنه في المسير إلى مصر. . .).

أما رواية ذكرها ابن عبد الحكم^(٨) عن يحيى عن خالده العدوي عن ابن أبي عمير حول سبب دخول عمرو بن العاص مصر، وتشير إلى أن عمرو بن العاص كان قد قدم بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، وبينما هو يرمي إبله وإبل أصحابه إذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية، فاستجاره هذا الأخير وطلب منه أن يعينه على ما مر به من شدائد الأيام، فسقاه عمرو ماء، وأنقذه من ثعبان كاد أن يفتك به، فحفظ له الشماس حسن صنيعه، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر ليعطيه أجر هذا الصنيع واعدًا إياه بأنه سوف يرى بلداً موفور الثراء، فانطلق عمرو بن العاص مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الاسكندرية (فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها، وما بها من الأموال والخير ما أعجبه، وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال، ونظر إلى

الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها . . .) واصطحب الشماس عمرو بن العاص لحضور احتفال بعيد عظيم كان قد وافق عقده دخول عمرو الاسكندرية، وجلس عمرو والشماس في مجلس حضره جمع من الناس احتفالاً بهذا العيد، وكان هؤلاء يترامون بالكرة، وإذا بالكرة هذه قد أقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو وكان المتعارف عليه بين هذا الجمع أنه إذا هوت هذه الكرة ووقعت على غرار ما وقعت في كم عمرو يكون صاحبها حاكماً لمصر.

وعلى الرغم من أن هذه الرواية لا تتخذ سنداً من الأسانيد المؤكدة الصحيحة^(٩)، مما يجعلنا نرتاب في صحتها تاريخياً إلا أنها لا تخلو من فائدة من حيث إنها تعطينا دلالة على أن عمرو بن العاص قد جمع سبيل الوقوف على الطرق المؤدية إلى مصر، وعلى أهم معالمها ومدنها فضلاً عن معرفة أحوالها عن كثب^(١٠) كما أن هذه الرواية تشير إلى أن عمرو بن العاص قد ارتاد النواحي الشامية في الجاهلية بقصد التجارة، الأمر الذي تؤكدُه الحقائق التاريخية، فكان تجار العرب قبل ظهور الإسلام يقدون غالباً كل صيف من مكة إلى فلسطين^(١١) وكانوا يحملون السلع ومتاجر الشرق الأقصى إلى بلدان البحر المتوسط^(١٢) كما كان تجار العرب يلتقون في فلسطين مع تجار مصر وغيرهم من المصريين الذين دأبوا على زيارة الأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس^(١٣) وكانت المناطق الفسيحة الممتدة من جنوب فلسطين إلى أطراف الدلتا تعمرها عناصر عربية، ولم يكن لليبيزنطيين فيها إلا حاميات قليلة أهمها العريش^(١٤) الأمر الذي مهد لعمرو بن العاص أن يجري اتصالاته خلال رحلاته التجارية مع أقاربه من العرب، ومهد له - أيضاً - الوقوف على أحوال هذه النواحي قبيل دخوله إياها بقصد الفتح.

ولما بعث الخليفة أبو بكر الصديق عمرو بن العاص في حملة من بعثه من أمراء

الجيش إلى الشام، شهد عديدًا من المواقف في ساحة القتال مع الروم وكانت له (الآراء السديدة والمواقف الحميدة) ^(١٥) ونخص بالذكر جهوده الموفقة في فتح فلسطين ^(١٦) التي كفلت له الخصوصية والتمايز بين أقرانه من أمراء الفتوح حتى بات على أثر ذلك شأن توليه لفتح مصر أمرًا ضروريًا، حيث أثبت فعالية في خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - في فتح حصون الروم، ففتح غزة في عهد الأول ونابلس واللد وبيت جبرين، واتخذ هذه الأخيرة ضيعة تدعى «عجلان» باسم مولى له ^(١٧) كما فتح قنسرين، وسواحل الأردن ^(١٨)، كما توجه بعد اليرموك إلى إيليا (بيت المقدس) بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ^(١٩)، وقيل أنه توجه إليها بعد أن أشار عليه أبو عبيدة بن الجراح بذلك ^(٢٠)، وأثبتت هذه الناحية مقاومة، ولم تستسلم - على نحو ما قيل - إلا في العام السابع عشر من الهجرة، وطلب أهلها الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل الشام، على أن يكون المتولى لهذا الصلح الخليفة عمر بن الخطاب، فنزل الجابية ^(٢١) ومنها إلى «إيليا» فأنفذ الصلح ^(٢٢).

ويكشف لنا الفتح العربي لفلسطين أن عمرو بن العاص قد أتبح له من خلال قيامه بهذا الفتح الوقوف على أهمية مصر لسلامة الفتوح الإسلامية بالشام ^(٢٣) ومن الشائع في المصادر العربية أن عمرو بن العاص قد أحرز نجاحًا كبيرًا في توجيه أنظار الخليفة إلى خطورة قائد الروم «الأرطوبون» ^(٢٤) حيث كتب إليه يخبره بما نشره هذا القائد من جنود في بيت المقدس، وأوضح له خطورة الموقف في فلسطين على أثر انسحاب «الأرطوبون» إلى مصر واتخاذها قاعدة له لعرقلة الفتح الإسلامي في الشام، حيث عبأ جيوشه، وأخذ يعمل على حماية قيسارية للحيلولة دون وقوع «إيليا» في قبضة عمرو بن العاص، ومن الثابت أنه خرجت بهذا الخصوص بعثة عسكرية سنة ١٧ هـ من مصر إلى شمال الشام توطئة

لتطويق شامل للجيوش الإسلامية بالشام، فاستولى الروم على أنطاكية^(٢٥)، وحاصروا حمص^(٢٦)، حيث كان أبو عبيدة بن الجراح يحجوب شمال الشام، الأمر الذي دفع بأبي عبيدة إلى أن يكتب إلى الخليفة بأخبار الهجوم البيزنطي، فأشار عليه الخليفة عمر بضرورة أن تأتيه النجدة بأمرة القعقاع بن عمرو وأن يحاصر أهل الجزيرة الذين ماثوا الروم في حصار أبي عبيدة، وسرعان ما قدم الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة إلى الجابية لنجدة أبي عبيدة، غير أن المسلمين أنزلوا هزيمة بحملة الروم وأجبروها على الارتداد قبل وصول الخليفة إلى الجابية^(٢٧) وحين وصوله كتب إليه أبو عبيدة يخبره بالنصر، وعقد الخليفة مؤتمره من بعد ذلك في الجابية.

وتشير الروايات على أن عمرو بن العاص كان القائد الأوحى الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطاب في الجابية بأهمية فتح مصر لتأمين حدود الشام الجنوبية حيث قام إليه عمرو (فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرصه عليها، وقال إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين، وعونا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا، وأعجز عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب، وكره ذلك، فلم يزل عمرو يزين أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك، فعقد له على أربعة آلاف رجل، وقيل بثلاثة آلاف وخمسة^(٢٨)).

وتشير الروايات العربية - أيضا - على أن الخليفة عمر بن الخطاب لم ير إزاء رغبته في فتح مصر أميرا كافيا لهذه المهمة سوى عمرو بن العاص، وأنه على الرغم من تخوفه من فتحها قد بلغ شأوا كبيرا إلا أنه لم يسند مهمة فتحها لغيره من القيادات الإسلامية التي أحرزت نجاحا هائلا في الجبهات الشامية، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الخليفة نفسه قد كلف عمرا بأن يختار ما يراه

مناسبًا من العناصر المتحاربة في الشام للخروج معه إلى مصر قائلًا له (انذب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك، فسر به . . .) (٢٩) ومن غير الثابت أنه كانت هناك شخص من أقران عمرو بن العاص تمثل بدائل يختار من بينها الخليفة لإمرة الجيش الزاحف لفتح مصر في حالة إذا ما عدل الخليفة عن قيام عمرو بن العاص بهذه المهمة حتى في ذلك الوقت الذي بلغ فيه تخوفه منتهاه، بدليل أنه لم يأمر بعزل عمرو بن العاص واستبداله بغيره حينما توجس من خطورة فتح مصر بإشارة من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وما أبداه من آراء في شأن عمرو بن العاص جاء فيها (أن عمرا لجريء، وفيه إقدام، وحب للإمرة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا . . .) (٣٠)، وكل ما في الأمر أن الخليفة إزاء تخوفه هذا كتب إلى عمرو قائلًا (إن أدركك كتابي قبل أن تدخل إلى مصر، فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك) (٣١).

ولا ننس في معرض حديثنا عوامل أخرى تتصل بشخص عمرو بن العاص وتظهر لنا المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كان ينظر إلى عمرو بن العاص بوصفه رجلا يملك من السمات التي تعينه على اجتياز العقبات، ومما قيل أنه نظر إليه يوما فقال (ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً) (٣٢) وقيل - أيضا - أن دهاة العرب في الإسلام أربعة، منهم عمرو بن العاص، ويذكر الشعبي (وأما عمرو فللمعضلات) (٣٤)، ولا يخفى علينا ما كان يتوافر في شخص عمرو بن العاص من صفات وفي ذلك يذكر الشعبي (٣٥) عن قبيصة ابن جابر (ما رأيت رجلا أبين قرأنا ولا أكرم خلقا، ولا أشبه سريرة بعلانية منه).

يتضح لنا مما تقدم أن الأحداث التي واكبت فتح فلسطين، فضلا عما كان للقيادات الإسلامية وبالذات عمرو بن العاص - من أخبار في الجاهلية قد مهد

لعمرى من العاص أسباب ظهوره مما جعل الخليفة عمر من الخطاب يقبل على اختياره لإمرة الجيش الزاحف لفتح مصر، وجعله من بعد ذلك واليًا عليها أو نائبًا عنه في حكمها.

إسناد ولاية مصر إلى عمرو بن العاص :

لم تكن البداية لهذه الولاية - بطبيعة الحال - بإسناد الخليفة عمر للقائد عمرو بتولي مهام فتح مصر في مؤتمر الجابية سنة ١٧هـ، ولم تكن أيضا بمسير عمرو ابن العاص إليها. بل جاءت مقرونة بفتح مصر الذي به انتقلت إلى عمرو مهام الحاكم البيزنطي العام في مصر، ووضع عمرو به نهاية لمرحلة طويلة من السيادة البيزنطية على مصر وبداية لمرحلة جديدة تمثل أول عهود مصر بالإسلام.

ويستلزم ما أسلفناه من إشارة البحث في الروايات التي دارت حول التاريخ الذي تم فيه فتح مصر لتصل بصورة مؤكدة إلى بداية التاريخ لأول عهود مصر بالإسلام. والذي يشير بطبيعة الحال إلى بدء قيام عمرو بن العاص بولاية مصر.

نعود أقدم الروايات العربية في شأن مسير حملة عمرو بن العاص إلى مصر إلى ما أورده ابن عبد الحكم والطبري وتشير هذه الروايات جملة وتفصيلا إلى أن عمرو بن العاص قد سار بحيشه من قيسارية بفلسطين في سنة ١٨هـ / ٦٣٩م، وبلغ العريش في أواخر تلك السنة، ومنها اتجه إلى الفرما في أوائل سنة ١٩هـ - ٦٤٠م^(٣٦) وواصل سيره متغلبا على ما صادفه من مقاومة حتى بلغ أم دين، ومنها زحف إلى حصن بالليون^(٣٧)، على أن المسلمين قد وجدوا مقاومة عنيفة، وأحسوا بصعوبة فتح الحصن، فعهد عمرو لفريق من جنده بحصار الحصن، على حين اتجه هو بحملة استكشافية قصيرة الأجل في الجهات العربية حيث الفيوم وجهات الصعيد الأدنى، إلى أن بلغه المدد من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، وانتهى الأمر بتطويق المسلمين للحصن، وطلب المقوقس الصلح،

غير أن الامبراطور البيزنطي « هرقل » أعلن رفضه لهذا الصلح، فنهض المسلمون إلى تطويق الحصن واقتحموه في محرم سنة ٢٠ هـ وقيل في ربيع الأول من نفس السنة - إبريل سنة ٦٤١م^(٣٨)، وسرعان ما اتجه العرب من بعد ذلك لفتح مدينة الاسكندرية، فحاصروها ثلاثة أشهر، وانتهى الأمر بعقد الصلح الذي كمل للمسلمين دخول المدينة^(٣٩).

وتتفق المصادر المسيحية القديمة مع ما ذهب إليه كل من ابن عبد الحكم والطبري على أن فتح مصر كان في سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م^(٤٠)، كما أنه لم يختلف مؤرخو الفتوحات حول ذلك التاريخ اللهم إلا ما خالف به البعض منهم الآخر في شأن بدء سير الحملة، فالبعض يرى أن ذلك بدء كان في سنة ١٩ هـ - مخالفاً في ذلك الآخرين الذين يرون أنه بدأ سنة ١٨ هـ^(٤١).

وأخذ عديد من الكتاب والمؤرخين بصحة ما أورده ابن عبد الحكم والطبري من أن فتح مصر كان في سنة ٢٠ هـ ومنهم ابن قتيبة^(٤٢) وابن الأثير^(٤٣)، وابن كثير^(٤٤) وابن خلدون^(٤٥)، والمقرئزي^(٤٦) على حين أورد هؤلاء - أيضاً - روايات أخرى ذكرها الطبري ولا يجمعون عليها لأن هذا الأخير قد أوردها دون الأخذ بها، ومن ذلك ما أشير إلى أن ذلك الفتح كان في سنة ١٦ هـ^(٤٧) أو سنة ٢١ هـ^(٤٨) أو سنة ٢٥ هـ^(٤٩).

على أن التحقيق يثبت صحة ما أجمعت عليه الروايات العربية والمصادر المسيحية القديمة من أن فتح مصر - ويقصد به فتح حصن بابلون - كان في سنة ٢٠ هـ، ذلك أن الشواهد التاريخية وفق ما فرضه ظروف الفتوحات أيام الخليفة عمر بن الخطاب تؤكد أن سير الحملة قد جاء بعد مؤتمر الجابية سنة ١٧ هـ، وليس قبل ذلك، الأمر الذي يدحض القول بأن الفتح كان سنة ١٦ هـ^(٥٠)، كما أن الحملة قد أخذت في طريقها باتجاه مصر النيل الغربي فترة

زمنية إزاء ما قابل العرب من مقاومة بيزنطية في الفرما وبليس وأم دنين وبابلون، واستغرقت هذه المسافات إلى أن تم فتح الحصن أكثر من عام الأمر الذي يعاير ما أورده البلاذري^(٥١) عن أن مسير الحملة قد بدأ سنة ١٩ هـ وليس من الصحيح أن يترك المسلمون مصر دون فتحها من بعد اتخاذهم القرار بذلك في الجابية سنة ١٧ هـ^(٥٢) إلى أن تسير الحملة سنة ١٩ هـ في وقت أدركوا فيه أهمية مصر وماعتها، وخطورة حامياتها البيزنطية، كما أن ما أسلفناه يدحض بطبيعة الحال ما أورده ابن حلدون^(٥٣) من إشارات تفيد بأن الفتح كان في سنة ٢٢ هـ و ٢٥ هـ، والصحيح أن المسلمين قد فتحوا الإسكندرية للمرة الثانية في هذه الأخيرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان^(٥٤).

ويمكن القول - اعتمادا على ما أسلفناه - أن ولاية عمرو بن العاص الأولى قد بدأت في المحرم أو ربيع الأول سنة ٢٠ هـ بعد أن فتح العرب حصن «بابلون» وعقدوا الصلح مع «قيرس» الحاكم البيزنطي في مصر.

وقد يظن البعض أن عمرو بن العاص لم يكن إذاً قد احتوى كل أقاليم مصر - وبالذات الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية الأمر الذي كان من شأنه أن يؤجل قيام عمرو بن العاص في مصر بوصفه «نائباً عن الخليفة»، باعتباره كان بمقدور الروم أن يستردوا قواهم ويجبروا العرب على الانسحاب، غير أن هذا الظن فيما يذهب إليه البعض لا يتفق وإسهامات العرب من جهود موفقة في فتح حصن بابلون الذي به أخذت الديار المصرية حملة وتفصيلاً بها في ذلك الإسكندرية طريقها إلى الوقوع في قبضة العرب المسلمين، وسرعان ما تحدد مستقبل مصر السياسي بمقتضى معاهدة بابلون الأولى التي عقدت عقب استيلاء العرب على الحصن في ٢٠ هـ / ٦٤١ م^(٥٥).

وكان صلح بابلون حاصلاً بأهل مصر أو الأقباط ويتبين من نصوصه أن

المقوقس كان يحسب نفسه من أهل مصر وليس ممثلاً للإمبراطور البيزنطي، وبمقتضى ذلك الصلح صالح العرب أهل مصر على أن يعطوا الجزية، وكان المصريون بمقتضاه مسؤولين عن الأمن في سواحيهم (فعلهم ما جنى لصوصهم)، كما يتضح من بنود الصلح أن نمرًا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح، ففرست عليهم ضريبة من الماشية والخيول^(٥٦).

وكان صلح بابليون عاملاً هاماً يشر على العرب احتواء كافة الديار المصرية في وقت قصير الأجل، فكان يفعل شروط ذلك الصلح قد خرج القبط إلى جانب العرب حينها شرعوا في التوجه إلى الإسكندرية، فأصلحوا لهم الطريق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم - القبط - أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم^(٥٧) وسرعان ما وقعت في قبضة المسلمين كافة الحصون الفرعية في الفيوم^(٥٨) والصعيد الأدنى والأوسط فيما بين سنتي ٢١ هـ، ٢٢ هـ، وبذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وبضعة أشهر.



وضع النبي ﷺ نظام الدولة الإسلامية، فكان يبيب عمالاً على القبائل وعلى المدن يقومون بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة^(٥٩)، ولما ولي أبو بكر - رضي الله عنه - الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم، كما سار على نفس نهج الخليفة عمر بن الخطاب، إذ رأى بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية أن يقسم البلاد أقساماً إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف على مواردها وثروتها، وعين عليها عمالاً أو ولاية يستمدون سلطتهم من الخليفة^(٦٠).

كان إقليم أفريقية يقع ضمن التقسيمات الإدارية التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب، وكان يشتمل على ثلاث ولايات، مصر العليا ومصر السفلى وغربي مصر وصحراء ليبيا، وهي نفس الجهات التي امتد إليها سلطان المسلمين

في أول عهود مصر بالإسلام بعد أن دخلت في حوزة الحند المسلمين بقيادة عمرو ابن العاص^(٦١).

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يسد حكم الولاية إلى عماله بعهد منه بعد أن يشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، على ألا يركب بردونا ولا يأكل نعيماً ولا يلبس رقيقاً، ولا يتخذ باماً دون حاجات الناس^(٦٢).

واتضح لنا مما تقدم أن الخليفة عمر بن الخطاب لم ير عضاضة من إسناد ولاية مصر إلى عمرو بن العاص لما لمسه من جهوده الموفقة في فتحها وضمه إليها إلى حظيرة الدولة الإسلامية، غير أن المصادر التي أمامنا قد حلت من الإشارة إلى العهد الذي أقر فيه الخليفة إسناده لعمرو بولاية مصر، لكن إشارات هذه المصادر تؤكد أنه عينه عاملاً عليها^(٦٣) بعد أن أتم فتحها، وليس قبل ذلك، وستخلص من إشارات البلاذري^(٦٤) ما يهص دليلاً على ذلك، فيذكر أنه لما أعطى الفتح على عمرو أمده الخليفة عمر بن الخطاب بنجدة عسكرية تحت إمرة الزبير بن العوام بن خويلد وأن الخليفة عمر بن الخطاب عرض على الزبير ولاية مصر قبل حروجه قائلاً له (يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر، فقال لا حاجة لي فيها، ولكي أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل، فرائطت به وإن وجدته في جهاد كنت معه فصار على ذلك)، أي إنه سار مجاهداً معاوناً لعمرو بن العاص في إتمام عمليات الفتح، ولم ينارعه الرعبة في الولاية.

وقد يظهر من النص أن الخليفة عمر بن الخطاب توجس من عمرو بن العاص، فأوفد الزبير بن العوام ليشركه في عمليات الفتح حتى يختاره والياً على مصر بعد فتحها، أو أن الخليفة عمر بن الخطاب عرض على الزبير ولاية مصر تشجيعاً له واستنهاضاً ليخرج لخدمة الحمد العرب ليسهل عليهم فتح مصر،

ومهما يكن من أمر هذه التأويلات فإن ما ورد على لسان الزبير يؤكد أن القادة العرب كانوا يسعون إلى تحقيق الهدف من الفتح دونما سعي مهم إلى الإمارة.

والأمر الجدير بالاعتبار أن ما كان يرأس به عمرو بن العاص الخليفة بعد صلح بابلين يشير إلى أول ما كان يتخذه المسلمون من سياسات في شأن حكم مصر كما أن ما قام به الخليفة من إقرار لما كان يرأسه فيه القائد عمرو دليل واضح على أن الخليفة قد أقر عمرو في تصرف شؤون مصر بعد فتحها وإفصاح منه بأنه قد أنابه عليها أو ولاه إياها متغلبا على ما كان يسيده من مخاوف إزاء خطورة الفتح حينما شرع عمرو بالمسير لفتح مصر^(٦٥)، وفي ذلك إشارة على أن الخليفة قد استوثق من أمر عمرو بن العاص للقيام بمهام الحكم في مصر بمثل ما كان يستوثق في أمره حينما أذن له بالمسير لفتحها

وهناك ما يفيد بأن الخليفة عمر بن الخطاب قد أسند ولاية مصر إلى عمرو ابن العاص بعد الفتح بعهد، واشترط عليه بأن لا يلبس رقيقا ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس؟ وأنه كان يرأسه إذا ما أحس بشيء يعارض ما اشترطه في عهده إليه بالولاية، وما يذكر في هذا السبيل أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص ما نصه (أنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر...)^(٦٦).

على أنه لا ينبغي أن ينظر إلى مصر بعد انضمامها إلى الدولة الإسلامية من حيث كونها خاضعة لدولة تعتمد على شعب تحكمه الزعرة الاستعمارية كما كانت حال مصر حينما كانت تابعة للدولة الرومانية التي جعلت شعوبها أجناسا مهقورة مغلوبة على أمرها، بل كانت مصر بعد أن فتحها العرب المسلمون تتبع لدولة عامة يقوم بشؤونها المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان، فكان كل مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في

ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها، وسادت هذه الأسس منذ عهد الرسول ﷺ حين تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة أو أسهموا في عهد الراشدين في التشريع وطلوا على تلك الحال في العصور اللاحقة حتى بلغ بهم الأمر أن قادوا الجيوش، وتولوا الولايات، ويمكن القول إن ولاية مصر الأولى في ظل الإسلام كانت معها أنها أصبحت جزءاً من هذه الدولة العامة (الدولة الإسلامية) وقاعدة لامتدادات جديدة لدولة الإسلام^(٦٧) الأمر الذي يؤكد ما طرأ على مصر بدخول العرب المسلمين إليها من سمات ترتبط بإقرار الحقوق والواجبات للحكام والرعية^(٦٨).

وصفوة القول إن عمرو بن العاص صار سائداً عن الخليفة عمر بن الخطاب منذ سنة ٢٠هـ، واضطلع بمهام هذه النيابة، وأصبح مسؤولاً أمام الخلافة وعليه أن يسير وفق اتجاهات مركز الخلافة على النحو الذي سوف يشير إليه في الصفحات التالية.

قيام عمرو بن العاص باختصاصات عقد الاختيار:

قام الخليفة عمر بن الخطاب بوضع النظام السياسي للدولة الإسلامية ونظم إدارتها، وكان يرمي إلى تماسك البلاد المفتوحة وحصوعها للإدارة المركزية في حاضرة الدولة، فاحتار ولاته من العرب، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين.

اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب الشكل المثالي للمركزية سبيلاً للارتقاء بالدولة، وكان عماله يستمدون من سلطتهم، لذلك كان أمراء الأقاليم في عهده يسمون عمالاً بمعنى أنهم ليسوا مطلقي السلطة - وبالذات - في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية، وقد استعملت كلمة والي فيها بعد.

ولدينا من إشارات المصادر ما يفيد بأن عمرو بن العاص كان يعرف بعامل مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، ومن ذلك ما ذكره الطبري^(٦٩) أن عمرو بن العاص كان (عامل عمر بن الخطاب على مصر)، ومن ذلك - أيضا - ما أورده أبو المحاسن^(٧٠) من أن عمرو بن العاص (استمر على عمله بمصر، وشرع في بناء جامعته . . .).

وأورد الطبري جانباً من خطاب الخليفة عمر بن الخطاب، ومن ذلك (يا أيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم، ولا لياخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم . . .)^(٧١).

ومن ذلك ما رواه الطبري^(٧٢) من أن الخليفة عمر بن الخطاب (كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم قائلا (إني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق . . .).

وعرف من أشكال الإمارة نوعان، إمارة عامة وإمارة خاصة، (فالعامة نوعان إمارة استكفاء بعقد عن اختيار وإمارة استيلاء بعقد عن اضطراب)^(٧٣)، وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، وتأتي إمرة عمرو بن العاص على مصر نموذجاً يمثل هذا الشكل من الحكم، ذلك أنه تقلدها باختيار الخليفة عمر بن الخطاب، ويحدثنا الماوردي عن عقد الاختيار عند تعيين العمال بأنه (يشتمل على عمل محدود ونظر معهود، والتقليد فيها يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله، ونظراً في المعهود من سائر أعماله، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر، فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور^(٧٤) أحدها النظر في تدبير الحيوش . . . والثاني النظر في الأحكام وتقليد القصة والحكام والثالث حباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها . . .

والرابع حماية الدين . . . والخامس إقامة الحدود . . . والسادس الإمامة في الجمع والجماعات . . . والسابع تسيير الحجيج).

والأمر الجدير بالاعتبار أن عقد الاختيار من جانب الخليفة عند تعيين العمال يشكل جانبا هاما نحو تحقيق الشكل المثالي لمركزية الحكم ، وعلامة بارزة لتمثيله أصدق تمثيل ، وباستقصائنا للإشارات الواردة في بطون الكتب يمكن القول أن عمرو بن العاص اضطلع بهذه الأمور السعة - التي أوردها الماوردي - باعتباره عاملا على مصر في ظل حكم مركزي يخضع خضوعا تاما للخليفة عمر بن الخطاب في حاضرة الدولة «المدينة المنورة».

ومن ذلك أن عمرو بن العاص كان إسان ولايته على مصر يقود الحشود حينها أرمع المسير إلى الإسكندرية وقرقة وطرابلس^(٧٥) وكان يتولى مهام الجباية وتصريفها امتثالا لما يصدر إليه من حاضرة الخلافة^(٧٦) كما كان يختص بالإمامة في الصلاة وحماية الدين بوصفه نائبا عن الخليفة^(٧٧) ، وكان يبعث بالقيادات لإتمام عمليات الفتح ، وأورد البلاذري^(٧٨) أنه لما فتح عمرو بن العاص (الفسطاط) مصر وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس وخارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم ، وأشمون وأخميم وقرى الصعيد ، وعمر بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط ، وأورد ابن الأثير^(٧٩) في أحداث سنة ٢١هـ أن عمرو بن العاص بعث عقة بن عامر الفهري إلى زويلة ، ففتحها صلحا

ومن ذلك - أبصا - أن عمرو بن العاص كان يستخلف نوابا عنه إذا ما أزمع المسير للفتح ، فاستخلف على مصر خارجة بن حذافة وسار هو لفتح الإسكندرية^(٨٠) ، ولما فتحها سنة ٢١هـ استخلف عليها عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي في رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط^(٨١).

ومن ذلك - أيضا أن عمرو بن العاص ولّى سنة ٢١هـ أربعة من أقرانه على

الخطط وهم معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن سمس القطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري، ففصلوا بين القبائل (٨٢).

ومن ذلك - أيضا - أن عمرو بن العاص كان يفصل بين المتخاصمين، ويقضي بين الناس إذا ما أشكل عليه أمر يخص القضاء، وظل على تلك الحال إلى أن عين الخليفة عمر بن الخطاب قبيل وفاته قيس بن أبي العاص السهمي قاضيا على مصر (٨٣)، وما يجدر ذكره أن القضاء في الدولة الإسلامية كان من الأمور الخاصة بالخلافة، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب اضطر إزاء اتساع رقعة دولته أن يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى عماله حكم الولايات المفتوحة (٨٤).

ولا ننس أن سلطة عمرو بن العاص امتدت إلى برقة وما يليها بعد أن سار إليها بنفسه، وهناك إشارات كثيرة تؤكد سلطته وإشرافه عليها تأمينا لمركز المسلمين في مصر (٨٥).

وكان عمرو بن العاص يحرص على أن يكون قيامه بمهام ولايته في إطار خصومه لمركز الخلافة محرضا بذلك شكلا مثاليا للحكم المركزي الذي شاع في الدولة الإسلامية، وتأتي تلك الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص في شأن مصالح أهل مصر مقابل أدائهم للجريمة دبلا وشاهدا على ذلك (٨٦).

وتفيد إشارات المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على تحقيق هذا الشكل المثالي في الحكم، فلا يترك عماله وشأنهم، بل كان يسعى إلى أن يرقب أحوال الولايات عن كثب وما قيل إنه قال (لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا، فإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى

الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، والله لعم الحول هذا) (٨٧).

ويتجلى لنا حضور عمرو بن العاص ومسؤوليته أمام الخلافة فيما رواه الطبري^(٨٨) من أن عمرو بن العاص رد على صاحب الإسكندرية حينما عرض عليه أن يؤدي إليه الجزيرة مقابل أن يرد إليه سبائا أرضه قائلا (إن ورائي أمير لا أستطيع أن أصع أسرا دوسه ، فإن شئت أن أمسك عك ونسك عني حتى أكتب إليه بالذي عرض علي ، فإن هو قبل ذلك منك قبلت ، وإن أمري بغير ذلك مصيت لأمره . . .) فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، فجاءه كتابه ، ما نصه (. . . ولعمري لجرية قائمة تكون لنا ومن بعدنا من المسلمين أحب إلي من في يقسم ثم كأنه لم يكن . . . فبعث عمرو بن العاص إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين . . .) (٨٩).

وكان بمقتضى صلح بابليون الأول أن أخذ المسلمون يشرعون في نشر سياستهم المالية ، وأخذ عمرو بن العاص يرسل الخليفة عمر بن الخطاب بما كان يتخذه وفق ما تفرضه ظروف الفتح وعقد الصلح الأول ، فكتب إليه في شأن الجزيرة والرزق من الموارد العينية التي ألزم بها العرب القبط إلى جانب مقادير الجزيرة^(٩٠) فأجاره الخليفة^(٩١) عمر بن الخطاب ، وصارت الأرض بمقتضى هذه المراسلات أرض خراج ، ولما فرغ المقوقس من أمر نفسه (ومن معه في مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح ألبوته - صلح بابليون - فرضوا به) (٩٢).

ومما يدل على أن عمرو بن العاص في مصر كان لا يرسم سياسة اقتصادية أو إدارية إلا بعد الرجوع إلى الخليفة عمر بن الخطاب أنه عارض الزبير بن العوام في أمر تصريح الجباية قبل أن يأذن له الخليفة عمر^(٩٣) ، كما راسل الخليفة - أيضا

— حينما ألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم حُجَّة صوف ويرسا أو عمامة وسراويل وتُحَمِّت في كل عام على أن لا تباع نساؤهم وأبنائهم ولا يسبوا وأن تقر أموالهم^(٩٤).

وكان عمرو بن العاص يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبلغه بما فتح الله عليه موضحاً في رسائله ما قام به من انجازات وما اتخذ من خطط وسياسة بعد كل فتح^(٩٥).

ويظهر لنا حرص عمرو بن العاص على تصريف حكمه دون ألا يتجاوز ما أسند إليه من مهام من حيث كونه نائباً عن الخليفة امتثالاً لعقد الاختيار فيما كان يخاطب به الخليفة عمر بن الخطاب بلقب أمير المؤمنين^(٩٦) الأمر الذي يؤكد أن قيامه بالإمارة أو السلطة في مصر مرهوباً باتجاهات أمير المؤمنين «الخليفة عمر بن الخطاب»، وإضافة المؤمنين إلى أمير تعطي اللقب صفة دينية إلى جانب سمته السياسية ليصور بذلك مهمة الخلافة الإسلامية ومعناها تصويراً حقيقياً، كما أن لفظ أمير يرمز إلى أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة حربية، وبذلك يتمشى اللقب مع عهد الفتوح لما فيه من معنى السلطة الحربية إلى جانب السلطة الإدارية^(٩٧).

وما لا شك فيه فإن في مناداة عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب بأمر المؤمنين اعتراف منه ودليل على تبعيته لسلطته الدينية والحربية والإدارية، وأورد القلقشندي^(٩٨) بخصوصاً حول ما جرت به العادة عند تحرير الرسائل من قبل عمال الولايات لمركز الخلافة في عهد الراشدين فيذكر (وكان الرسم فيها أن يكتب لعبد الله فلان أمير المؤمنين سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد...).

وكان عمرو بن العاص يؤكد في رسائله إلى الخليفة تبعيته في حالة إذا ما

توجس منه درءاً لأية شبهة وتبيانا لإخلاصه لأمر المؤمنين، ومن ذلك ما أورده القلقشندي^(٩٩) فيما يدور حول كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ما نصه (لعمد الله عمر أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، أنا في كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مالي وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي وأني أعلم أمير المؤمنين أني بيلد^(١٠٠) السعير فيه رخيص وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس . . . والله لو رأيت خيانتك حللاً ما خنتك . . .).

وكان عمرو بن العاص يحرص في رسائله إلى الخليفة عمر بن الخطاب على ذكر عبارات فيها معنى الدعاء إلى جاسب مخاطبته بأمر المؤمنين في حين كان الخليفة يخاطبه بوصفه نائباً عنه، وفي ذلك دلالة على حرص عمرو بن العاص على الشكل المثالي لمركزية الحكم، وأمدنا شمس الدين الدمشقي^(١٠١) بوثقتين هامتين فيهما من الدلالة ما يؤكد طبيعة العلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب ونائبه في مصر، أولاهما كتاب بعث به الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وجاء فيه ما نصه (أما بعد يا عمرو، إذا أتاك كتابي فابعث إلي جوابه تصف لي مصر ونيلها، وأوضاعها وما هي عليه حتى كأنني حاضرها)، في حين تكشف الوثيقة الثانية عن حرص عمرو بن العاص في أن يحمل جوابه عبارات تناسب قدر الخليفة، وتؤكد تبعيته لمركز الخلافة، فجاء في هذه الوثيقة ما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد يا أمير المؤمنين فإنها تربة غراء وحشيشة خضراء بين جبلي . . .) وأورد أبو المحاسن^(١٠٢) نص الجواب بشيء من التعبير بما يفيد أن عمرو أعاد على الخليفة جواب كتابه ما نصه (ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر، أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر . . .).

والأمر الجدير بالاعتبار أن عمرو بن العاص تقلد الولاية العامة في مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب دون أن ينازعه فيها أحد، فأورد البلاذري^(١٠٣) أن عمرو بن العاص كان يجمع بين ولايتي الحرب والخراج (فأراد عثمان^(١٠٤) أن يجعل عمرا على الحرب وعبد الله^(١٠٥) على الخراج، فأبى ذلك عمرو، وقال أنا كما سلك قري البقرة . . . فولى ابن سعد مصر)^(١٠٦).

ويذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب ثوفي وعلى مصر أميران عمرو بن العاص وأسفل الأرض وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد، الأمر الذي يفتقر إلى الدقة ولا ينقض الصحيح من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها^(١٠٧).

وصفوة القول، أن ما كان يقوم به عمرو بن العاص من مهام في تصريف حكمه قد جاء من حيث كونه نائباً للخليفة وتابعاً لمركز الخلافة، ويشكل مظهراً من مظاهر نظام الحكم الذي ساد عهد الخلافة الراشدة ويدعمه المراسلات المتبادلة بين عمال الولايات والخليفة في حاضرة الدولة.



- ١- ابن الأرق: بدائع السلوك في طبائع الملوك، ج ١، ص ٣٣٥.
 - ٢- ابن الأرق: المصدر نفسه والصفحة.
 - ٣- انظر: حول شخص حائل بن الوليد إلى الشام (البلاذري: فتوح البلدان، صفحة ١١٨ - ابن خلدون: العبر، ج ٢، صفحة ٨٤، ٨٧).
 - ٤- حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحصار، ج ٢، ص ٣٣.
 - ٥- حول جهود عمرو بن العاص في مواجهة الحصون البيزنطية في الشام، انظر (البلاذري: المصدر نفسه، صفحات ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٦ هـ، وابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ١٠٥ و ١٠٦).
 - ٦- فتوح مصر: صفحة ٧٦.
 - ٧- الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.
 - ٨- فتوح مصر: صفحات ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩.
 - ٩- حول أساليب ابن فبعة صاحب هذه الرواية، انظر ابن قتيبة: المعارف صفحة ٥٠٥.
 - ١٠- إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسائلها الحضارية، صفحة ١١ و ١٢.
 - ١١- القرآن الكريم سورة قريش - البغوي: تاريخ البغوي ج ١، صفحة ٢٠١.
 - ١٢- ابن هشام: سيرة النبي ﷺ ج ١، ص ١٤٧.
- Lammens: La Mecque a la Veille de l'hegire: P. 26.
- ١٣- إبراهيم أحمد العدوي: المرجع نفسه، ص ١١.
 - ١٤- حسين مؤنس: المرجع نفسه، ص ٣٣٠ - ٣٣١.
 - ١٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، صفحة ٢٨.
 - ١٦- ابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ٨٥.
 - ١٧- البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤.
 - ١٨- البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٢٣، ١٢٤.
 - ١٩- ابن خلدون: العبر، ج ٢، ص ٨٦.
 - ٢٠- البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٧ هـ.
 - ٢١- الجابية: قرية من أهالي دمشق من ناحية الحسوب قرب مرج الصفر، انظر (البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤ - ابن قتيبة: المصدر نفسه، ص ١٨٧) ومكانها اليوم مرتفعات الجولان.

الحالية، واحتلف في قدوم الخليفة عمر بن الخطاب الجاية، وقبل بل عاد بعد فتح بيت المقدس حتى أتى الجاية سنة ١٨ هـ والصحيح أن الخليفة عمر بن الخطاب قدم الشام أربع مرات، مرتين في سنة ١٦ هـ، ومرتين سنة ١٧ هـ، ولم يدخلها في الأولى، وتشير الأدلة على أنه قد اتخذ قراره بفتح مصر في الجاية سنة ١٧ هـ بعد أن أتم فتح فلسطين (البلادي). المصدر نفسه، صفحة ١٤٤ و ١٤٥ و ٢١٤، ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ٧٦ و ٨٠ - المقريري الخطط، ج ١، صفحة ٢٨٧

- ٢٢ - البلادي. المصدر نفسه، ص ١٤٤ - الطبري: المصدر نفسه، حوادث سنة ١٧ هـ.
- ٢٣ - إبراهيم أحد العدوي: المرجع نفسه، ص ١٢.
- ٢٤ - هكذا اشتهر عند العرب، واسمه المعروف «آريتين»
- ٢٥ - الطبري المصدر نفسه، ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٥. إبراهيم العدوي المرجع نفسه، ص ١٢.
- ٢٦ - الطبري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣ - ١٥٥، ابن كثير: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٤.
- ٢٧ - الطبري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣ - ١٥٥ - ابن كثير. المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٤.
- ٢٨ - ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ٨١ - المقريري الخطط، ج ١، ص ٢٨٧.
- ٢٩ - ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ٨٣ - المقريري الخطط، ج ١، ص ٢٨٨.
- ٣٠ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٨٣ - المقريري. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٨.
- ٣١ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٨٣ - المقريري المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٨.
- ٣٢ - يقصد عمرو بن العاص ويشير اسم العلم «عبد الله» إلى عبد الله بن عمرو
- ٣٣ - ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٢ و ٣ - أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٣.
- ٣٤ - ابن حجر: المصدر نفسه والصفحة
- ٣٥ - ابن حجر: المصدر نفسه والصفحة - أبو المحاسن: المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٤.
- ٣٦ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨٠ وما بعدها - الطبري المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥ - هذه الروايات عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق وأخرى عن أحمد بن ثابت عن إسحاق ابن عيسى، وأخرى عن الواقدي عن ابن سعد، (الطبري). المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥ وما بعدها).
- ٣٧ - بناء الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) وسماه العرب قصر الشمع أو الحصن (المقريري الخطط، ج ١، ص ٢٨٨)
- ٣٨ - الطبري. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥ و ١٩٦ - المقريري الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.
- ٣٩ - ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ١٠٦ - الطبري: المصدر نفسه، ص ١٩٦.
- ٤٠ - حنا القنوصي

- ٤١ - البلاذري: المصدر نفسه، صفحة ٢١٤.
- ٤٢ - المعارف، صفحة ١٨٢.
- ٤٣ - الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٩٦.
- ٤٤ - البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٠٧.
- ٤٥ - المعبر، ج ٢، ص ١١٤.
- ٤٦ - الخطوط: ج ١، ص ٢٩٨.
- ٤٧ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٧.
- ٤٨ - الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ٣١، ٣٢.
- ٤٩ - ابن خلدون: المعبر، ج ٢، ص ١١٤.
- ٥٠ - الطبري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٦.
- ٥١ - المصدر نفسه، ص ٢١٤.
- ٥٢ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨٠.
- ٥٣ - المعبر، ج ٢، ص ١١٤.
- ٥٤ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٢٣٩.
- ٥٥ - الطبري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩ - سيدة الكاشف: مصر في فخر الإسلام، صفحة ١٧.
- ٥٦ - الطبري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩ - ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٦.
- ٥٧ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ١٠٧.
- ٥٨ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
- ٥٩ - حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤٦٤.
- ٦٠ - حسن إبراهيم: المرجع السابق والصفحة.
- ٦١ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ١٠٧ و ٢٢٧ - البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٨، و ٢٢١، ٢٢٥ - ٢٢٧.
- ٦٢ - الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٤.
- ٦٣ - الطبري: المصدر نفسه، ص ٤٣١ - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٣ - أبو المعاسن: التنجيم الزاهرة، ج ١، ص ٦١.
- ٦٤ - المصدر نفسه، ص ٢١٤.

- ٦٥- ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨١، ٨٣. - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨٧، ٢٨٨ من ذلك كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص عند سيره إلى مصر ويظهر فيه غاؤه ومما جاء فيه (سر وأنا مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي سر بما إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابي أمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها، فاتصرف وإن أتت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضي لوجهك، واستعن بالله واستنصره، فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار الخليفة - رضي الله عنه - الله، فكانه يخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن يتصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك عمرا الكتاب، إذ هو برفع. - انظر: ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ٨١ - المقرئ: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٧.
- ٦٦- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢١.
- ٦٧- حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحضارة المصرية، صفحات ٢٤٣ و ٢٤٥.
- ٦٨- إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية، ص ٣٧- ٤٤.
- ٦٩- المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤٣١.
- ٧٠- المصدر نفسه، ص ٦٥.
- ٧١- الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٢. - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٦.
- ٧٢- المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٢.
- ٧٣- الماوردي: الأحكام السلطانية، صفحة ٣٠.
- ٧٤- الماوردي: المصدر السابق، صفحة ٣٠.
- ٧٥- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٥ و ٢٢٧. - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٦٧. - نشر دار بيروت، بيروت سنة ١٣٨٥هـ.
- ٧٦- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٧- ٢١٨. - ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٥٦٦ دار بيروت - بيروت - سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ٧٧- أبو المحاسن: التنجيم الزاهرة، ج ١، ص ٧٣ و ٧٤.
- ٧٨- المصدر نفسه، ص ٢١٨.
- ٧٩- الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٠.
- ٨٠- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢١.
- ٨١- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
- ٨٢- أبو المحاسن: التنجيم الزاهرة، ج ١، ص ٦٥.
- ٨٣- الكندي: الولاية والفضيلة، ص ٣٠٠- ٣٠١.

- ٨٤- سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٨٩.
- ٨٥- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٥ و ٢٢٧.
- ٨٦- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٥.
- ٨٧- الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١١.
- ٨٨- المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٦٣.
- ٨٩- الطبري: المصدر السابق، والصفحة.
- ٩٠- الواقدي: فتوح الشام، ج ٢، صفحات ٢٢٨-٣٠٨.
- ٩١- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٦.
- ٩٢- البلاذري: المصدر نفسه والصفحة.
- ٩٣- البلاذري: المصدر نفسه والصفحة.
- ٩٤- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٦.
- ٩٥- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٢، ٢٢٤.
- ٩٦- صار ذلك اللقب من ألقاب الخلفاء العامة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وهو من الألقاب المركبة على لقب أمير، وثاني ألقاب الخلفاء ظهوراً بعد لقب خليفة، وأول من لقب به الخليفة عمر ابن الخطاب (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار، صفحة ١٩٤).
- ٩٧- حسن الباشا: المرجع نفسه والصفحة.
- ٩٨- صبح الأعشى: ج ٦، صفحة ٤٧٧.
- ٩٩- المصدر السابق والصفحة.
- ١٠٠- يقصد مصر.
- ١٠١- كتاب نحة الدهر في عجائب البر والبحر، صفحة ١٠٩، ١١٠.
- ١٠٢- النجوم الزاهرة: ج ١، صفحة ٣٢، ٣٣.
- ١٠٣- المصدر نفسه، ص ٢٢٥.
- ١٠٤- يقصد الخليفة عثمان بن عفان الذي تولى الخلافة سنة ٢٣ هـ خلفاً للخليفة عمر بن الخطاب.
- ١٠٥- يقصد عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي آلت إليه ولاية مصر سنة ٢٣ هـ في عهد الخليفة عثمان ابن عفان.
- ١٠٦- تشير هذه العبارة إلى أن الخليفة عثمان بن عفان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح بدلاً من عمرو ابن العاص.
- ١٠٧- حول هذه الجزئية أنظر سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، صفحة ٢٦.

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، والجزء الثاني، نشر دار بيروت، بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، والجزء الثالث نشر دار بيروت، بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- ٣- إبراهيم أحمد العدوي، «مصر الإسلامية، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية»، القاهرة ١٩٧٥م.
- ٤- البلاذري (ت ٢٩٧هـ)
فتوح البلدان، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ٥- الطبري (ت ٣١٠هـ)
تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، القاهرة ١٣٥٧هـ-١٩٣٩م، والمجلد الثاني نشر مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ٦- حنا القبوسي (ت أواخر القرن الأول الهجري)
تاريخ
Chronique de Jean Eveque de Nikoue, Texte Ethiopien Oublié et Traduit par MH, Zotenberg (Notices et Extraits de Manuscrits de la Bibliothèques 2 Paris, 1983).
- ٧- ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
الاصابة في تمييز الصحابة، الجزء الثالث، ط أول، السعادة، بيروت، ١٣٢٨هـ.
- ٨- ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٦هـ)
«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، الجزء الأول، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ٩- حسن الياسا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ١٠- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٥م.
- ١١- حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحصار المصرية (تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون)، المجلد الثاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة، القاهرة.
- ١٢- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)
«العبر وديوان المبتدأ والخبر»، الجزء الثاني، بيروت، ١٣٣٩هـ-١٩٧٩م.

- ١٣ - ابن الأثير (ت ٨٩٦هـ)
«بدائع السلك في طبائع الملك» تحقيق علي سامي النشار، الجزء الأول، بغداد، ١٩٧٧م.
- ١٤ - سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧م.
- ١٥ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)
«فتوح مصر» تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩١١م.
- ١٦ - شمس الدين الدمشقي (من أعلام القرن السابع الهجري).
كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر أغسطس بن يحيى، المطبعة الأكاديمية الأميراطورية، مطربورغ ١٨٦٥م.
- ١٧ - ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)
المعارف، نشر ثروت عكاشة، ط ٤، دار القاهرة.
- ١٨ - القلقشندي (ت ٨٢١هـ)
«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» جزء ١١ نسخة مصورة من الطبعة الأميرية، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء ١٣، القاهرة، ١٩١٩م.
- ١٩ - ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية، الجزء السابع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٥١هـ - ١٩٣٣م.
- ٢٠ - الكندي (ت ٣٥٠هـ)
«الولاء والقضاة»، بيروت ١٩٠٨م.
- ٢١ - Lammens (H) La Mecque a la Veille de L'Hegire, Beyrouth, 1924.
- ٢٢ - الماوردي (ت ٤٥٠هـ)
«الأحكام السلطانية»، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٢٣ - أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣م.
- ٢٤ - القريري (ت ٨٤٥هـ)
«المواظع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، الجزء الأول، بولاق ١٢٧٠هـ.
- ٢٥ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك الجعافري الحميري البصري)
«سيرة النبي ﷺ»، راجع أصولها محمد يحيى الدين عبد الحميد، القاهرة، طبعة حجازي.
- ٢٦ - الواقدي (ت ٢٠٧هـ)
فتوح الشام، الجزء الثاني، طبعة دار الجليل، بيروت.
- ٢٧ - اليعقوبي (ت ٢٨٢هـ)
تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، بيروت ١٣٨٥هـ.